القضايا الكبرى فى الاسلام

١٥ – قتل الوليد بن يزيد

للأستاذ عبد المتعال الصعيدى

فى سنة ست وعشرين ومائة ثار يزيد بن الوليد المُلَقَّبُ بالناقص على الوليد بن يزيد فقتله ، وكان الوليد بن يزيد من فتيان بنى أمية وظرفائهم وأجوادهم وأشدائهم ، منهمكاً فى اللهو والشرب وسماع الغناء ، وكان يزيد بن الوليد يظهر النُّسُكَ ويتواضع ، وهو الذى يقال فيه وفى عمر بن عبد العزيز : الناقص والأشج أعْدَلاَ بنى مروان . أى عادِلاهُمْ ، ولا يجرون أفعل التفضيل على بابه ، لأنهما تنتفى نسبة العدل إلى غيرهما من بنى مروان ، ولم يكن فى بنى مروان عادل سواهما . وهكذا يقرن التاريخ ذلك الناقص بعمر بن عبد العزيز فى العدل ، مع أن عمر بن العزيز لو عاش إلى زمانه ما فعل فعله فى قتل ابن عمه من غير تحقيق فى أمر ما نسب إليه ، ولم يقم حول الوليد من الأخبار التى لا تمحيص فيها ما يسوغ الإقدام على قتله ، وما يُشَكِّكُ الناس فى دينه من غير روية ولا تثبيت ، والقضاء أدق من التاريخ نظراً ، وأقوى منه تثبتاً ، لأنه لا يحكم إلا بالبينة العادلة ، والأصل عنده البراءة ما لم تقم أدلة قاطعة على الإدانة ، فيجب أن يدرس ما نسب إلى الوليد درساً قضائياً ، وأن يرجع إلى تحقيق ما نسب إليه من تهم ، ليتبين أمر الوليد فى ذلك بياناً عادلا ، ولا ينزل به إلى ذلك الحضيض الذى نزل به التاريخ إليه ، ولينبين أمر ذلك الناقص الذى يشبهه الناس بعمر بن عبد العزيز ، ولم يكن من ذلك الملك العادل فى شىء ، وإنما كان الذى يشبهه فى زمنه أخ له لم يطمع فى الملك طمعه ، وسيكون قوله فى هذه القضية هو القول الفصل .

كان يزيد بن عبد الملك قد جعل الأمر من بعده لأخيه هشام ابن عبد الملك ، ثم جعل الأمر من بعد هشام لابنه الوليد ، وكان سن الوليد فى ذلك الوقت إحدى عشرة سنة ، وقد عاش أبوه يزيد ذلك حتى بلغ خمس عشرة سنة ، فكان يقول له : الله بينى وبين من جعل هشاما بينى وبينك . وكأنه كان يعرف ما سيلقاه ابنه من أخيه هشام ، فإنه لم يكد يتولى الملك بعد أخيه يزيد حتى أراد الوليد على خلع نفسه من ولاية العهد ، ليجعل الأمر من بعده لابنه مَسْلَمَةَ فأبى الوليد ذلك كل الإباء ، فتنكر له هشام وأضرَّ به ، وجعل يشيع حوله أخبار السوء لتسقط منزلته عند الناس ، وكان يزيد يقول الشعر فى الخمر والغزل ، وله فى ذلك أشعار جياد كان أبو نواس يأخذ منها ، ويحذو حذوه فيها ، وهذا إلى شغفه بسماع الغناء ، وانصرافه عن الناس إلى مجالسه بين أرباب ذلك الفن ، فوجد هشام فى ذلك مرتعاً خصيبا للتزيُّد على الوليد ، وتنقيصه عند الناس بما يشيعه حوله ، حتى جعل كثيراً منهم ينظرون إليه نظرة سوء ، ويتهمونه فى دينه وعرضه ، ولكنه على اجتهاده فى ذلك لم يقدر أن يثبت عليه شيئاً يمكنه من خلعه من ولاية العهد ، مع أن ملكه استمر من سنة خمس ومائة إلى سنة خمس وعشرين ومائة .

فلما ملك بعده الوليد بن يزيد لم ينس ما فعله معه عمه هشام، فأساء إلى أولاده ، وأخذ سليمان بن هشام فضربه مائة سوط وحلق رأسه ولحيته وغرَّبه إلى عمَّان من أرض الشام ، وكذلك أساء إلى أولاد عمه الوليد بن عبد الملك ، ففرق بين روح بن الوليد وامرأته ، وحبس عدة من إخوته ، فأخذوا يرمونه بالكفر ، ويشيعون بين الناس أنه يغشى أمهات أولاد أبيه ، إلى غير ذلك من التهم التى ستأتى بعد ، وكان أشدهم فى ذلك يزيد بن الوليد ،

مع هذا لا تزال تتمسك بالشهرة التى كانت اكتسبتها سابقاً ، بالرغم من حرمانها من التفوق الذى كانت أحرزته قبلا فى هذا المضمار .

إننى أشبه منزلة فرنسا وشهرتها المزعومة بمكانة « الوجوه والأعيان » الذين يتمتعون فى بعض المجتمعات بشهرة المكانة التى كانوا امتازوا بها قبلا ، دون أن يعترفوا بسمو المكانة التى قد أحرزها غيرهم بكل جدارة واستحقاق .

وكما أن بعض الناس يتأثرون — عادة — بالشهرة السابقة دون أن يلتفتوا إلى «الحالة اللاحقة» فإن بعض كتابنا ظلوا تحت تأثير شهرة فرنسا السابقة ، دون أن يعرضوا هذه الشهرة إلى حكم الأحوال الحالية ويزنوها بالموازين الجديدة .

(البقية فى العدد القادم) ***

وكان الناس إلى قوله أميل ، لأنه كان يظهر النسك ويتواضع ، فإذا أردنا تحقيق ذلك على الاجمال وجب أن نرجع فيه إلى رجل من بنى أمية كان له خطره بينهم فى ذلك الوقت ، وهو العباس ابن الوليد أخو يزيد بن الوليد ، وكان أمرأ أصدق ، ولم يكن فى بنى أمية مثله ، لأنه كان يتشبه بعمر بن عبد العزيز فرأيه فى ذلك يرجح كل رأى ، لتلك الصفات التى تحمله على قول الحق ، ولأنه أخو يزيد بن الوليد فلا يتهم فى شهادته عليه .

وقد مشى إليه أخوه يزيد فشكا إليه ما يجرى على الناس من الوليد بن يزيد ، فقال له : يا أخى إن الناس قد مَلُّوا بنى مروان، وإن مشى بعضكم فى إثر بعض أُكلتم ، ولله أجل لا بد أن يبلغه ، فانتظره .

ثم مشى إليه مرة أخرى هو وأخوه بِشر بن الوليد ، فكلمه بشر فى أن يخلع الوليد بن يزيد ، فنهاه عن ذلك ثم قال له : يابنى مروان ، أظن أن الله قد أذن فى هلاككم ، ثم قال :

إنى أعيـــذكمُ بالله من فِتَنٍ
مثل الجبال تَسَامى ثم تَنـــدفعُ
إن البرية قد مَلَّتْ سياستكم
فاستمسكوا بعمود الدين وارتدعوا
لا تُلْحِمُنَّ ذئابَ الناس أنفسكم
إن الذئاب إذا ما ألحمت رتعـــوا
لا تُبْقِرُنَّ بأيديكم بطونكم
فَثَمَّ لا حسرةٌ تُغْنى ولا جَزَعُ

ثم عاوده يزيد مرة أخرى وكان قد أجمع أمره ، وعزم على الدعوة لنفسه ، فشاور يزيد بن عمر الحَكَمِىَّ فقال له : لا يبايعك الناس على هذا وشاور أخاك العباس ، فإن بايعك لم يخالفك أحد ، وإن أبى كان الناس له أطوع ، فإن أبيت إلا المضى على رأيك ، فأظهر أن أخاك العباس قد بايعك . فأتى يزيد أخاه العباس فاستشاره فنهاه عن ذلك ، فرجع وبايع الناس سراً وبث دعاته بينهم ، ثم عاود أخاه العباس فاستشاره ودعاه إلى نفسه ، فزجره وقال له : إن عدت لمثل هذا لأشدنك وثاقا وأحملنك إلى أمير المؤمنين فخرج من عنده فقال العباس : إنى لأظنه أشأم مولود فى بنى مروان .

ولما قامت الحرب بين الوليد ويزيد كتب العباس إلى الوليد إنى آتيك ، فلما علم بذلك جيش أخيه أرسل من وقف له فى الطريق ، فأخذوه قهراً إلى جيشهم . وأكرهوه على البيعة لأخيه يزيد ، ونصبوا له راية وقالوا : هذه راية العباس قد بايع لأمير المؤمنين يزيد . فقال العباس : إنا لله ، خدعة من خدع الشيطان، هلك بنو مروان . فتفرق الناس عن الوليد حين رأوا راية العباس وتم الأمر ليزيد بهذه الخدعة الماكرة .

فلما رأى الوليد ذلك ظاهر بين درعين ، وركب فرسه السنا ى، وقاتلهم قتالا شديداً ، فناداهم رجل : اقتلوا عدو الله قتلة قوم لوط . ارجموه بالحجارة . فلما سمع ذلك دخل القصر وأغلق عليه الباب ، فأحاطوا به من كل باب ، وضيقوا عليه ، فدنا من الباب وقال : أما فيكم رجل شريف له حسب وحياء أكلمه ؟ فقال يزيد بن عنبسة السكسكى : كلمنى . فقال : يا أخا السكاسك ، ألم أزد فى أعطياتكم ، ألم أرفع المؤن عنكم ، ألم أعط فقراءكم ، ألم أخدم زمناكم . فقال يزيد بن عنبسة : إنا ما ننتقم عليك فى أنفسنا ، إنما ننتقم عليك فى انتهاك ما حرم الله ، وشرب الخمر ، ونكاح أمهات أولاد أبيك ، واستخفافك بأمر الله . فقال : حسبك يا أخا السكاسك ، فلعمرى لقد أكثرت وأغرقت ، وإن فيما أحل الله سعة عما ذكرت .

ثم رجع إلى داخل القصر وجلس وأخذ مصحفاً فنشره يقرأ فيه ، وقال : يوم كيوم عثمان . فصعدوا على الحائط ونزلوا إليه فاحتزوا رأسه ، وكان آخر كلامه : الله لا يرتق فتقكم ، ولا يَلُمُّ شعثكم ، ولا يجمع كلمتكم . ثم ساروا برأسه إلى يزيد بن الوليد فأمر بنصبه ، فقال له يزيد بن فروة مولى بنى مُرَّةَ : إنما تنصب رؤوس الخوارج ، وهذا ابن عمك وخليفة ، ولا آمن إن نصبته أن ترِقَّ له قلوب الناس ، ويغضب له أهل بيته . فلم يسمع منه ، ونصب الرأس على رمح فطافوا به دمشق .

وقد أكبر الناس قتل الوليد بن يزيد بهذا الشكل، وثار لقتله أهل حمص وأهل فلسطين وغيرهم ، واضطرب أمر بنى مروان اضطرابا كبيرا ، وعجل الله بأيام يزيد بن الوليد ، فلم يدم له الملك إلا خمسة أشهر واثنى عشر يوما ، ولم يدم أمر بنى مروان بعده إلا سنين تعد على الأصابع .

فإذا أخذنا فى قصة الوليد بن يزيد بهذا السياق ، وهو قائم على وقائع تنطق بنفسها ، وجدنا أنه لم يزد أمره عن غيره من بنى مروان ، وأنه كان سائراً على سنتهم فى الملك ، آخذا بطريقهم فى سياسة الناس ، ووجدنا أن يزيد بن الوليد لم يخرج عليه لأخذه بسنة آبائه ، لأن الناس كانوا قد ألفوها على ما فيها من إرهاقهم ،

فلم يكن فى أخذ الوليد بها ما يثيرهم عليه ، وقد سار عليها يزيد بعد قتل الوليد ، فتشفى من رأسه ذلك التشفى ، وعسف بأولاده وأنصاره كما كان يعسف الوليد وغيره من بنى مروان ، ولو أنه خرج عليه لأنه يريد تغيير تلك السياسة كما غيرها عمر بن عبدالعزيز ، لكان له فى ذلك بعض العذر ، ولكان له فيه غرض شريف ، ولكنه كان يريد الملك لا أكثر ولا أقل ، فسلك إليه ذلك الطريق الثالث ، ولم يجد إلا أن يغالى فى أمر الوليد ، ويلصق به من أشنع التهم ما يلصق ، ليثير العامة عليه ، ويصل بذلك إلى غرضه فى الملك . ولقد كان عمه هشام أشرف منه خصومة ، وأقل منه حرصاً على ذلك المنصب الزائل ، فلم يستبح لنفسه أن يخلع الوليد من ولاية العهد على غير إرادته ، وخشى من ذلك مالم يخشه يزيد ، وقد نصحه أقرب الناس إليه فلم ينتصح ، وحذر مما يقدم عليه فمضى فيه ولم يلتفت إلى نصح ناصح .

فهل بعد هذا نصدق شيئاً من تلك التهم الشنيعة التى ألصقها أشياعه بالوليد ليصلوا بها إلى مآربهم ، وليرضوا الناس بعد أن غضبوا لقتلهم إياه ؟ وهل نصدق ما يروونه من أنه فتح المصحف يوما فخرج فيه (واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد) فألقاه ورماه بالسهام وقال :

تُهَدِّدُ كل جبار عَنِيدٍ فهأنذاك جبارٌ عَنِيدُ
إذا ما جئت ربك يوم حشرٍ فقل يارب مزقنى الوليدُ

وهل بعد هذا نصدق ما رواه العلاء بن البندار من أنه كان زنديقا ، وأن رجلا من كلب كان يقول بمقالته مقالة الثَّنَوِيَّة ، فدخل عليه العلاء يوماً وعنده ذلك الكلبى ، وإذا بينهما سفط قد رفع رأسه عنه ، فإذا ما يَبْدُو له منه حرير أخضر ، فقال الوليد : ادن ياعلاء . فدنا فرفع الحرير فإذا فى السفط صورة إنسان ، وإذا الزئبق والنوشادر قد جعلا فى جفنه ، فهو يطرف كأنه يتحرك ، فقال له الوليد : هذا مانى ، لم يبتعث الله نبياً قبله ، ولا يبتعث نبياً بعده . فقال له : ياأمير المؤمنين ، اتق الله ، ولا يغرنك هذا الذى ترى عن دينك . فقال الكلبى : يا أمير المؤمنين ، ألم أقل لك إن العلاء لا يحتمل هذا الحديث .

وهناك تهم أقبح من هذه التهم تلصق بالوليد ، يحجم القلم حياء عن ذكرها ، ولا يرى أن يلوث بها صفحات مجلة الرسالة الغراء ، وكلها تهم إذا فتح لها التاريخ بعض صحائفه ، لأنه يروى كل سمين وغث ، فإن القضاء لا يمكن أن يؤاخذ الوليد بها ، لأنه لا يؤاخذ الشخص فى دينه بما يقوله غيره عنه ، وإنما يؤاخذه بما يقربه على نفسه ، وقد تبرأ الوليد من هذه التهم الشنيعة التى تلصق به ، فلا يمكن القضاء أن يؤاخذه بها ، لأنه يتحرج مما لايتحرج منه التاريخ ، وقد وضعت فى يده رقاب الناس ، فلا يمكنه أن يجازف فيها ، ولا يستبيح أن يحكم فيها إلا بما يراه يقينا . ولو أن هذه التهم التى تلصق بالوليد قدمت إليه لعاقب أصحابها عليها ، لأنه ليس عندهم ما يثبتها ، فيعدها من القذف الذى يعاقب عليه ، حفظاً لأعراض الناس ، وصونا لأصحاب المروءة والشرف .

ويكفى فى براءة الوليد من تلك التهم الشنيعة وقوف العباس ابن الوليد ذلك الموقف منه ، وهو ذلك الرجل التقى الصادق ، وقد كان أشبه بنى أمية بعمر بن عبد العزيز لا أخوه يزيد الناقص ، وهو الذى كان يجب أن يقرن إليه فى ذلك القول المشهور — الناقص والأشج أعدلا بنى مروان — لأن الناقص لم يكن أمره فى شئ من أمر عمر بن عبد العزيز .

وقد أنكر قوم ما قيل فى حق الوليد من ذلك ، وقالوا إنه قيل عنه وألصق به وليس بصحيح . قال المدائنى : دخل ابن للنمر ابن يزيد أخ الوليد على الرشيد ، فقال له : ممن أنت ؟ فقال : من قريش . قال : من أيها ؟ فأمسك ، فقال : قل وأنت آمن ولو أنك مروانى . فقال : أنا ابن النمر بن يزيد . فقال الرشيد : رحم الله عمك ولعن يزيد الناقص وقتلة عمك جميعا ، فإنهم قتلوا خليفة مجمعا عليه ، إرفع إلى حوائجك . فرفعها إليه فقضاها .

وقال شبيب بن شبة : كنا جلوساً عند المهدى فذكروا الوليد ، فقال المهدى : كان زنديقا ، فقام أبو عُلاثة الفقيه فقال : يا أمير المؤمنين ، إن الله عز وجل أعدل من أن يولى خلافة للنبوة وأمر الأمة زنديقا ، لقد أخبرنى من كان يشهده فى ملاعبه وشربه عنه بمروءة فى طهارته وصلاته ، فكان إذا حضرت الصلاة يطرح ثياباً كانت عليه من مطيَّبة ومصبَّغة ، ثم يتوضأ فيحسن الوضوء ، ويؤتى بثياب نظاف بيض فيلبسها ويصلى فيها ، فإذا فرغ عاد إلى تلك الثياب فلبسها ، واشتغل بشربه ولهوه ، أفهذه أفعال من لا يؤمن بالله ؟ فقال المهدى : بارك الله عليك يا أبا علاثة .

عبد المتعال الصعيدى